

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يحوي التراث الإسلامي قدرًا ضخمًا من متون الحديث النبوي الشريف وشروحه، هي حصيلة أكثر من عشرة قرون قدّم فيها علماء الإسلام -مُحدّثين وفقهاء ومتكلمين، في مختلف الأقطار والأزمان- تراثًا معرفيًا كبيرًا يدور حول أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفسيرًا وتوضيحًا، فضلًا عن المهارة والبراعة في تبويب كتب الحديث التي تتضمّن هي الأخرى جملةً من المعاني والدلالات الكاشفة لمجموعة الأحاديث في الباب.

لكن المُلفت أن هذا التراكم المعرفي الكبير لم يلقَ عنايةً بدراسة السياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أسهمت -بشكل أو بآخر- في الممارسة العلمية لشروح كتب الحديث، فشروح الحديث لم تكن مجرد ممارسة علمية نخبوية تجري بعيدًا عن المجال العام، بل كان لعناصر البيئة البشرية المحيطة أثرها وفعاليتها في «فعل الشرح» ذاته، سواء تعلّق الأمر بطبيعة المخاطبين، أو الإشكالات الفكرية الرائجة في زمن المصنّف، أو تعلّق الأمر بالسلطة المعرفية وصراعاتها، والسلطة السياسية وتأثيرها، أو تراتبية شبكات الجدارة والكفاءة العلمية. وتتطلب هذه الأمور كلها بحثًا معتمدًا يتجاوز معرفة زمان ومكان واضع المتن أو الشرح، وينفذ بالدراسة والتحليل إلى البيئة العلمية والسياسية التي أحاطت بالإنتاج العلمي المدرّس.

وقد دفعنا هذا النقص المعرفي في المكتبة العربية إلى النظر في المصادر الغربية التي أولت هذا الجانب اهتمامًا معتبرًا وذا قيمة إضافية وموضوعية، ف جاء الكتاب الذي بين أيدينا ليقدم تنقيحًا في السياقات المحيطة بشروح الحديث النبوي عبر ألف عام، وليكشف عن ثلاثة أبعادٍ مركزية في شروح الحديث يستمدّها المؤلّف من دراسته الدقيقة لتقاليد شرح الحديث في الهند ومصر والشام والأندلس. وقد وظّف المؤلّف في دراسته هذه ما استجدّ من مناهج الدراسة الاجتماعية، وبالأخصّ «نظرية الممارسة الاجتماعية» للسوسيولوجي الفرنسي بير بورديو.

وإننا في مركز نهوض للدراسات والأبحاث نسعد بتقديم النسخة العربية لكتاب «قال رسول الله: شرح الحديث في ألف عام» للباحث والأكاديمي الأمريكي جويل بليشر، أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بجامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة، والذي يصدر بترجمة رائقة للدكتور أحمد محمود إبراهيم، مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

وقد أصدر المركز سابقاً عدّة إصدارات تُعنى باستثمار مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية في دراسة تطوُّر العلوم الشرعية في تراثنا، ووصل هذا التراث بيئته التاريخية، مما يعمّق فهم الباحث لطبيعة نموّ هذه العلوم وتطوُّرها وقدرتها على الاستطرداد في المستقبل. وقد أصدر المركز في هذا السياق كتاب «ديناميات الشريعة: الشريعة الإسلامية والتحوّلات الاجتماعية والسياسية» الذي حرّره وقَدَّم له الأثروبولوجي الأمريكي تيموثي ب. دانيالز، وكتاب «روح الشريعة الإسلامية» لجون بول شارناي، وقد ترجم كلا الكتائين الأثروبولوجي التونسي المرموق الدكتور محمد الحاج سالم. كما نشر المركز النسخة العربية لكتاب «إسلام الدولة المصرية: مفتو وفتاوى دار الإفتاء» للباحث الدنماركي جاكوب سكوفجارد بيترسون، وكتاب «إحياء التشريع الإسلامي: استقبال القانون الأوروبي والتحوّلات في الفكر التشريعي الإسلامي في مصر في الفترة ما بين (١٨٧٥-١٩٥٢م)» للباحث الأمريكي ليونارد وود، ويُعدُّ هذا الكتاب الأخير إحدى الدراسات المهمّة التي تدرس التفاعلات بين الشريعة والقانون في مصر الحديثة. كما صدر عن المركز الترجمة العربية لكتاب آريا نكيسا «أثروبولوجيا الفقه الإسلامي: التعليم والأخلاق والاجتهاد الفقهي في الأزهر». وبالإضافة إلى هذه الإصدارات، فقد تبنّى المركز مشروع البروفيسور ساري حنفي خلال خمسة أعوام كاملة، هي مدّة العمل على هذا المشروع، وصدر في كتاب «علوم الشرع والعلوم الاجتماعية: نحو تجاوز القطيعة».

كما أقام مركز نهوض للدراسات والبحوث ورشّتي عمل ضمّت عددًا من أبرز الباحثين والأكاديميين من العالمين العربي والغربي، أو لاهما أُقيمت في مدينة مراكش بعنوان: «العلوم الإسلامية وتجديد المنهج: الرؤية، والمنهج،

وكيفية التنزيل»، وأقيمت الثانية في العاصمة اللبنانية بيروت بعنوان: «أولويات البحث في العلوم الإسلامية»، وكلتاها تناولتا الكثير من النقاشات والمشاركات المهمة في سياق مشروع المركز بهذا الصدد.

وأخيرًا، فإننا نأمل أن يُسهم هذا الكتاب والنقاش حوله في لفت النظر إلى أدواتٍ جديدةٍ في فهم التراث العربي الإسلامي، وفي دراسة علوم الحديث النبوي الشريف خاصة. وغني عن القول أن الجهد الإنساني يعرّوه النقص أبدًا، وأن المناهج الحديثة في علم اجتماع المعرفة قد تغفل عن أبعاد رساليّة وغايات أُخرويّة لا تنحصر في الرهانات الدنيويّة (المادية والرمزية)، التي تقصر نظرية «الممارسة الاجتماعية» عن إدراكها، وهي مسألة ينبّه إليها المؤلّف في مقدمته. ولكنّ هذه المناهج قد تُسهم في كشف أبعاد اجتماعية وتاريخية كانت خافية عن جمهور المشتغلين والمهتمين بشروح الحديث، وتفتح أمامهم الباب لفهمٍ أوسع وأكثر تركيبًا لظروف كتابة تلك الأسفار الجليلة.